الفصل الأوَّل

أعمدة تذكاريَّة

عقب إيماني إبَّان دراستي الجامعيَّة، أخذني أحد أصدقائي لمقابلة امرأةٍ عجوزٍ وحيدةٍ كانت تسكن مقطورةً صغيرة. كانت هذه المرأة واحدة من أكثر النساء المسيحيات بشاشة الذين قابلتهم على الإطلاق. كانت مجاهدةً في الصلاة كما تقول الكلمة؛ إذ كانت تُصلِّي لثماني ساعاتٍ يوميًّا من أجل كلِّ أنواع الشؤون. وحينما أوضح صديقي لها أنِّي حديث الإيمان، نظرت إليَّ مسرورةً وقالت: «يا أيُّها الشابّ، ما عليك فعله هو أن تغرس وتدًا روحيًّا في الأرض الآن». لم أفهم ما عنَتْه بقَولها هذا، لكنَّها أضافتْ موضحةً لي

بأنِّي أحتاج إلى التيقُّن من أنَّ تغييري سيبقى للأبد. فكان عليَّ تذكُّر ذلك الوقت من حياتي، لحظة تحوّلي، كي أسترجعَ الماضي إلى تلك اللحظة كلَّما وقعتُ في صراعٍ في المستقبل.

قد ذكَّرتني نصيحتها بواقعةٍ سَرَدَهَا سِفر يشوع تروي قصَّة دخولِ بني إسرائيل أرضَ الموعِد. فقد كان الشعب قد خرج من مِصر، وعبرَ البحر الأحمر، وتاه أربعين سنة في البرِّيَّة. وحينها، أخيرًا، كانوا يستعدُّون لدخولِ أرضِ كَنعان. ومعَ ذلك، فلم تكُنْ تلك الخطوةُ الأخيرةُ من الرحلة هيِّنَة.

كان يقف بينهم وبين أرض الموعد نهر الأردن، الذي كان في موسم فَيضانه آنذاك؛ فقد أغرق ضَفَّتَيه وامتدَّ عرضُه ليبلغَ نحو ألفٍ وستِّ مئةِ متر. وبالتأكيد كان ينتظرهم على الجانب الآخر الكَنعانيُّون الذين سمعوا أنَّ شعبَ إسرائيل يقترب، فكانوا يستعدُّون لملاقاتهم.

وبمجـرَّد أن وقـفَ شـعب إسـرائيل علـى حافَـة النهـر، أعطـى الله يشـوعَ أوامـر سـيرهم للأمـام: فـكان الكهنـة فـي المقدِّمـة حامليـن تابـوت العهـد. وبمجـرَّد أن وَطِئـتْ أقدامهـم فـي الميـاه، رجعَـتْ ميـاه النهـر أكثـر مـن اثنيـن وثلاثيـن كيلـو متـرًا، وجَـفَّ قـاع النهـر، وعليـه عبـرَتْ كلُّ جماعةِ الشعب نهرَ الأردنِّ إلى أرض الموعد.

ثمَّ كَلَّف يشوع الشعب بالأمر التالي:

وَكَانَ لَمَّـا انْتَهَـى جَمِيـعُ الشَّـعْبِ مِـنْ عُبُـورِ الأُرْدُنِّ أَنَّ الـرَّبَّ كَلَّـمَ يَشُـوعَ قَائِـلاً: «انْتَخِبُـوا مِـنَ الشَّـعْبِ اثْنَـيْ عَشَـرَ رَجُـلاً، رَجُـلاً وَاحِـدًا مِـنْ كُلِّ سِـبْطٍ، وَأْمُرُوهُـمْ قَائِلِيـنَ: احْمِلُـوا مِـنْ هُنَـا مِـنْ وَسَـطِ الأُرْدُنِّ، مِـنْ مَوْقِـفِ أَرْجُـلِ الْكَهَنَـةِ رَاسِـخَةً، اثْنَـيْ عَشَـرَ حَجَـرًا، وَعَبِّرُوهَـا مَعَكُـمْ وَضَعُوهَـا فِـي الْمَبِيـتِ الَّـذِي تَبِيتُـونَ فِيـهِ اللَّيْلَـةَ».

فَدَعَا يَشُوعُ الاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً الَّذِينَ عَيَّنَهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رَجُلاً وَاحِدًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ. وَقَالَ لَهُمْ يَشُوعُ: «اعْبُرُوا أَمَامَ تَابُوتِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ إِلَى وَسَطِ الأُرْدُنِّ، وَارْفَعُوا كُلُّ رَجُل حَجَرًا وَاحِدًا عَلَى كَتِفِهِ حَسَبَ عَدَدِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِكَيْ تَكُونَ هذِهِ عَلاَمَةً فِي وَسَطِكُمْ. إِذَا سَأَلَ غَدًا بَنُوكُمْ قَائِلِينَ: مَا لَكُمْ وَهذِهِ الْحِجَارَةَ؟ تَقُولُونَ لَهُمْ: إِنَّ مِيَاهَ الأُرْدُنِّ قَدِ انْفَلَقَتْ أَمَامَ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ. عِنْدَ عُبُورِهِ الأُرْدُنَّ انْفَلَقَتْ مِيَاهُ الأُرْدُنِّ. فَتَكُونُ هذِهِ الْحِجَارَةُ تَذْكَارًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدَّهْرِ» (يشوع ٤: ١-٧).

فقد كان على الشعب إقامةُ عمودٍ من اثني عشر حجرًا في منتصف قاع النهر تذكارًا لهذه الواقعة.

ثـمَّ رفـع كلُّ ممثِّـلٍ عـن كلِّ سِبط حجـرًا مـن قـاع النهـر، وأقامـوا تـذكارًا فـي الجلجـال حيـث باتـوا تلـك الليلـة.

نجـد فـي العهـد القديـم أمثلـةً علـى هـذا النـوع من إقامـة التـذكارات. فقد بنى نـوح مذبحًا بعـد نجاته من الطوفـان (تكوين ٨: ٢٠-٢٢)، وأقـام يعقوب عمودَ تذكارٍ بعد رؤيته في المنام لسـلَّم يصل إلى السماء (تكوين ٢٨: ١٠-٢٢)، وبنـى داوُد مذبحًا حيـث أوقف الله الوباء (٢صموئيل ٢٤). فهذه الأبنية رسَّـخَت لحظاتٍ حاسـمةً فـي التاريخ مـن أجل الأجيـال اللاحقة، حتَّـى إذا انتابَ شـعب إسـرائيل خوفٌ أو كانـوا في حاجةٍ إلـى تعزية، كانـوا ينظرون ويـرَون من هـذا التـذكار أنَّ الله معهم. فهـو مَـن أحضرهـم إلـى هـذا الحـد، وهـو مَـن وعدهـم بقيادتهـم لينهـوا الطريـق. بكلمـاتٍ أخـرى، كانـت هـذه الأبنيـة التذكاريَّـة تذكيـرًا مرئيًّا للشـعب

في وسط صراعهم وشكوكهم ومخاوفهم، لكي ينظروا إلى الله الذي خلَّصهم منذ البدء.

وكما أفهمني صديقي، فإنَّنا نحتاج إلى هذا النوع من التذكار في عالمٍ متقلِّب؛ ففي صراعنا طوال حياتنا المسيحية، كثيرًا ما نصارع مع أماننا في المسيح. فنحن نرغب في حياةٍ آمنة، وفي أن نشعر بالأمان، ونحتاج إلى ضمانِ ديمومةِ أمنِنا. لذا يتمثَّل السؤال المحوريُّ هنا في: «هل يمكن أن يفقد المؤمنُ الحقيقيُّ بالمسيح، ذو الإيمان القويم، خلاصه؟» أو بصيغةٍ أخرى تحمل لغةً شخصيَّة «هل يمكن أن أفقد خلاصي؟» ويصل هذا بنا إلى مسألة عقيدةِ الضمان الأبديّ، التي تُعرف أيضًا بعقيدة مثابرة القدِّيسين، التي تمثِّل الحرف «P» (من كلمة Perseverance) في التسمية الأوائليَّة الكالڤنيَّة الشهيرة «TULIP».

لطالما كانت هذه المسألة مؤرِّقَةً للمؤمنين، فقد أثارت خلافًا عظيمًا على مرِّ تاريخ الكنيسة، انتهى إلى إجابات مختلفةٍ عن هذا السؤال. فخلال القرن السادس عشر، اختلفَتِ الكنيسة الكاثوليكيَّة مع المصلِحين؛ لأنَّ المصلِحين يقولون إنَّ الإنسانَ يتبرَّر بالإيمان وحدَه، وبناءً على هذا التبرير، يتحلَّى المؤمنون بيقينِ حالةِ خلاصهم في الحاضر. لكنْ فرَّقَ المصلحون ما بين **يقين الخلاص** – الذي هو يقين المرء بأنَّه مُخَلَّصٌ الآن، دون أيَّةِ إضافةٍ حِيالَ ما إذا كان سيظلُّ مخلَّصًا – و**مثابرة القدِّيسين** – التي هي اليقين بأنَّ المرء سيظلُّ مخلَّصًا إلى الأبد. إنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة تُنكِرُ عقيدة اليقين الأبديّ، بل تُنكِرُ حتَّى عقيدة يقين الخلاص في ما عدا نُخبةً مُختارةً من القدِّيسين، مثل العذراء مريم أو فرنسيس الأسيزيّ. ولأنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة دائمًا ما تُعَلِّم بأنَّ المرء قد يقترف الخطيَّة المُميتة

(التي للموت)، وعليه فإنَّه يفقدُ النعمةَ المُخلِّصة، فقد عارضَتْ، بل قاومَتِ المفهوم المُصلِح عن المثابرة أو اليقين الأبديّ.

وداخل الإصلاح نفسه، وقع جدلٌ ما بين اللوثريِّين والمصلِحين لأنَّ لاهوتيِّين لوثريِّين عدَّة قالوا إنَّ المرءَ قد يتمتَّع في الحاضر بيقين خلاص، لكنَّ هذا الإيمان المخلِّص قد يُفقَد، ومعه تبريرُ هذا المرء. وفي تطوُّرٍ لاحقٍ للكنائس المُصلِحة، وقعَ جدَلٌ شرسٌ في هولندا، إذ عَدَّلَت مجموعة يُطلَق عليها «المعترَضون» في الكالڤنيَّة الهولنديَّة، ووضعوا حُجَّةً في مواجهةِ عقيدةِ مثابرةِ القدِّيسين، ورأوا أنَّ الخلاص يُفقَد.

يزخرُ الكتاب المقدَّس نفسه بمقاطعَ عدَّة تفترض أنَّ المرءَ قد يفقد خلاصَه (مثلًا، عبرانيِّين ٦: ٤-٦؛ ٢بطرس ٢: ٢٠-٢٢). أمَّا على الجانب الآخر، فثمَّة

مقاطعُ عدَّة تَعِدُ بأنَّ الله سيحفظ شعبَه إلى المنتهى. ومثال على ذلك نقرأ تصريحَ بولس الرسول: «**وَاثِقًا بِهذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلاً صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ**» (فيلبِّي ١: ٦). إنَّ الكتاب المقدَّس يحمل رسالةً موحدة، لكنْ يصعب أحيانًا التوفيق ما بين هاتَين المجموعتَين من التعاليم. وفي التحليل الأخير، بالدراسة المتأنيَّة للمكتوب، يُجاب عن السؤال حتمًا.

في الكنيسة المبكرة كان يُطلَق المصطلح اللاتينيُّ «*militia christianae*» على كلِّ ما يتعلَّق بهذا الجَدَل؛ فهو مصطلحٌ مرتبطٌ بالصراع المتواصل في حياة الإيمان. أعتقد أن هذا ما نحيا فيه، ليس في بيئةَ المفاهيم اللاهوتيَّة أو الفلسفيَّة المجرَّدة، بل في خضم شعور حقيقي بالصراع في حياة اليومية كمسيحيين.

إنَّ مفهـومَ «*militia christianae*» يشـير إلـى صـراع الحيـاة المسيحية – صـراع المسيحي المدعوِّ إلـى الثبـات في الإيمان.

نتذكَّـر جميعًـا قَـولَ الـربِّ يسـوع فـي متِّـى ٢٤: ١٣: «**وَلكِنِ الَّـذِي يَصْبِـرُ إِلَـى الْمُنْتَهَى فَهـذَا يَخْلُـصُ**»، ونتذكَّر أيضًـا حيـن قـال فـي لوقـا ٩: ٦٢: «**لَيْسَ أَحَدٌ يَضَـعُ يَـدَهُ عَلَـى الْمِحْـرَاثِ وَيَنْظُـرُ إِلَـى الْـوَرَاءِ يَصْلُـحُ لِمَلَكُـوتِ اللهِ**». فالـربُّ يسـوعُ يُحَـذِّر أولئـك الذيـن رفضـوا المعتقـداتِ الباطلـةَ وآمنـوا بالحـقّ مـن النظـر إلـى الـوراء.

مـن الواضـح، أن هنـاك أولئـك الذيـن يبـدو أنهـم يقومون بالإعتـراف بإيمانهـم بمصداقيـة، ثـمَّ يُنكِـرون هـذا الإيمـان. وأعتقـد أنَّ أيَّ شـخصٍ مضـى علـى إيمانـه أكثـر مـن سـنة، يعـرفُ أناسًـا مـن هـذا القبيـل – أناسًـا يبـدو ظاهريًّـا أنَّهـم تكرَّسـوا للإيمـان ثـمَّ تركـوه، أو تركـوا الكنيسـة.

وعليه، ينبغي لنا طَرْحُ السؤال الآتي: كيف يمكن هذا إنْ كنَّا سنقبلُ بفكرةِ أنَّ المرءَ الذي في النعمة، سيستمرُّ فيها؟

كما يمكن أن يكون هذا السؤال شخصيًّا جدًا؛ فهو ليس سؤالًا نظريًّا. ولأنَّنا نمرُّ في الحياة بنجاحاتٍ وإخفاقات، تلك التغييرات التي هي جزءٌ من خبراتنا اليوميَّة العابرة المتغيِّرة، نُدفَع إلى طَرْحِ السؤال الأهمّ: إنْ كنتُ الآن في الإيمان، وكنتُ في المسيح، فهل سيتغيَّر ذلك؟ هل ستتغيَّرُ الحالةُ التي أتمتَّع فيها بحضورِ المسيح؟ هل يمكن أن أفقد خلاصي؟